د. موس لبنى آمال

جامعة تلمسان

تقديم :

جاء في الحديث النبوي الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم حثّ المؤمنين على الصدق والحق إذا تقاضوا إليه: " أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم يكون ألحنُ بحجته من بعض، فأقضي له بشيء من حق أخيه، فلا يأخذ منه شيئا وإنما أقطع له قطعة من نار"[1].

وقد جعل " ابن فارس " اللحن بمعنى الفطنة، ومن الشواهد الدالة على هذا المعنى قول القتّال الكلابي [2].

ولقد وَحَيْتُ لَكُم لِكَيْمَا تفهموا ولَحَنْتُ لَحْنًا لَيس بالمُرتّبِ

اللّحن بمعنى فحوى القول:

الشاهد الذي يدل على هذا المعنى: قوله تعالى: (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول)[3].

اصطلاحا:

---

[1] - متفق عليه، ورد الحديث في صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الحديث، القاهرة، محمد فؤاد عبد الباقي 1412هـ، 1991 رقم الحديث 1713، ج 3 ص 1377.

[2] -ينظر: مرتاض عبد الجليل، الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية ص 62.

[3] - سورة محمد الآية 30.

اللّحن في اصطلاح علماء اللغة يرجع إلى المعنى العام الذي سبق أن أشرنا إليه وهو إمالة الشيء عن وجهته ، واللحن بمعنى الخطأ.

رغم اختلاف دلالات هذا اللفظ عبر مرور الزمن، إلا هناك وجهتين، فالأولى فضلت أن يكون حاضرا منذ العصر الجاهلي، أما الثاني فأكدت ظهوره مع صدر الإسلام. لم يكن اللّحن في بداية الأمر متفشيًا في ألسن النّاس، بل اقتصر على بعض الهَّنات الفردية الشاذّة التي سرعان ما انبرى العرب لتصحيحها ومعالجتها على الفور، ولعل هذا الأمر يبدأ من عند رسول الله عندما أخطأ أحدهم في مجلسه عليه السلام في اللّغة، فصرّح منها على الخطأ الذي اعتبر وقتها ضلالا وخروجا عن الصواب [4] .

كما قال أبو الأسود الدؤلي: " إني لأجد اللّحن غمرًا كغمر اللّحم"[5] وهنا يؤكد على قدم اللحن.

رغم أن اللحن يقصد به فساد اللّسان إلا في وقت متأخر، وهنالك من فرق بين اللّحن والخطأ. فالخطأ هو تغيير يحدث في الكلمة أو الجملة لا يترتب عليه تغييرا أو فساد في علامات الإعراب [6] .

أما اللّحن فهو ذلك التغيير الذي يحدث في علامات الإعراب مثلا لو قرأت الآية الكريمة بالنحو الصحيح:" أنّ الله بريء مِنْ المشركينَ ورَسُولُهُ" [7]. لو نقم بالجر في كلمة رَسُولُهُ بدل الرفع لاعتبر لحنا لأنه يتم تغيير في علامات الإعراب.

---

[4] - الخصائص، ابن الجني مطبعة دار الكتب المصرية، 1950، ج1ص8.

[5] - الزبيدي، أبو بئر محمد بن الحسن، لحن العامة، تحقيق عبد العزيز مطر، دار المعارف بمصر، بلا طبعة، 1981م، ص 15.

[6] - محمد عبده، المظاهر الطارئة على الفصحى، عالم الكتب، دار الثقافة العربية، مصر، ط1، 1980، ص12.

[7] - سورة التوبة، الآية 3.

أ. تطور اللّحن من عصر صدر الإسلام إلى العصر العباسي:

أجمع الدارسون القدامى على أنه لا لحن في الجاهلية، ويحددون ظهور اللّحن بحدود ظهور الإسلام، أو بعده بقليل وفي هذا الصدد يقول أبو بكر الزبيدي: "فاختلط العربي بالنبطي ، والحجازي بالفارسي ودخل الدين أخلاط الأمم وسواقط البلدان، فوقع الخلل في الكلام وبدأ اللّحن في ألسنة العوام " [8] .

1. اللحن في عصر صدر الإسلام:

مع ظهور الموالي والعبيد الذين لا ينتسبون إلى العربية، فتعلموا اللغة العربية تقليدا. و لكنها لم تنطق العربية بمرونة فكانت اللكنات الأعجمية واضحة المعلم مسيطرة على الألسن، ليعرف بعد ذلك اللّحن وقد اعتبر اللّحن وباء ولكنهم تصدوا له وقاوموه فاعتبر ظاهرة ذلك العصر نفرت منها الطباع، لأنهم اعتبروه إخلال سلامة السليقة العربية وخير دليل على ذلك: عندما قرأ رجل في حضرة الرسول "ص":أرشدوا أخاكم فإنه قد ظلّ" [9] .

ومع توسع الفتوحات الإسلامية وازديادها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي اعتبر الجيل الثاني في الإسلام اضطربت السلائق وذلك بعد أن كثر الدخيل وعلقته الألسنة وتنزله من الاجتماع منزلة المعاني الثابتة، فانحرفت به ألسنة الحضر عن نهجها العربي وخيف من تمادي على لسان العرب من الفساد [10] .

---

[8] - الزبيدي " أبو بكر محمد بن الحسن، لحن العامة، تحقيق عبد العزيز مطر، دار المعارف مصر، 1981 م، ص04.

[9] - ينظر :مرتاض عبد الجليل الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية ص68.

[10] - ينظر: مصطفى صادق الرّافعي، تاريخ آداب العرب، ج1 دار الكتب العلمية ص 24.

محاضرات في المرسومات العربية

"وفي عهده تمادى وازداد الدين انتشارا، والراغبون فيه إقبالا، فكثرت المساجد، والمعسكرات وحدثت المصاهرات. وأخذ المسلمون من عرب وعجم يشتركون في الفتوحات ويقفون صفا واحداً في الصلاة.

لم يدّخر عمر بن الخطاب جهدا لحماية الدّين الاسلامي و قواعد اللّغة العربية ، بل تصدى لكل مظاهر اللّحن ،فمنع المعسكرات العربية خارج بلاد العرب مع الأعاجم ومنع العجم من دخول بعض المواطن العربية [11] . فقد شدّد سيدنا عمر بن الخطاب على وقوع اللحن وأمر بجلد كل من وقع في وحرمانه من رزقه وتأديبه، فإذا كان عمر بن الخطاب يعاقب كل من وقع في اللّحن وخاصة من كتاب الدولة.

وأكثر ما كان يضرّ عمر بن الخطاب سماعه للحن، وفي أحد روايته أنه كان مارا رضي الله عنه على رجلين يرميان: فقال أحدهما للآخر: "أسبت". فقال عمر: "سوء اللحن أشدُّ من سوء الرّمي" حيث أبدل الصاد سينا شيء من اللّحن"[12]. ولكن حوادث اللّحن أخذت في التفشي والانتشار في المجتمع العربي في العصر الأموي وخصوصا في أواخر العهد الأموي، حيث لم يقتصر الأمر على العامة بل تعدّاه إلى خاصة النّاس من القادة والخلفاء والقصص على ذلك كثيرة حتى وجد عبد الملك بن مروان يجيب عمن يسأله عن سبب إسراع الشيب إليه " شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللّحن"[13].

---

[11] - ينظر: مرتاض عبد الجليل، الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية، ص (68- 69).

[12] - ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، دار المعارف، بيروت، ص09.

[13] - ابن عساكر، تاريخ دمشق، مخطوطة الظاهرية، ج 5 ص 490.

و بقيت العربية نقية صافية لم يدخلها لحن، إلا أنه تسرب وباؤه إلى ألسنة الأمويين الملازمين للأعاجم. حينئذ دخل أبو الأسود زياد أسير البصرة فوصف له حالة العربية وما أصبحت عليه قائلا:إني أرى العرب قد خالطت الأعاجم وفسدت ألسنتها " [14].

كان استعجال العرب لتدوين النحو ضرورة لاستعجالهم في الفتح ونشر الدّين الإسلامي، بتلك الفتوحات اتسعت الرّقعة الإسلامية ولكن الاختلاط كان ضرورة ملحة وما كان يحمل من تبعات فقد أهمل الناس الإعراب ونتيجة ذلك تدمروا مما كانوا يسمعون من لحن فأحسّوا بحاجة ماسة إلى ضبط قواعد اللّغة، و في هذا السياق ذهب جرجي زيدان إلى " أن جميع علماء اللغة، اتفقوا على أن واضع علم النّحو أو مدّونه فهو بالإجماع ودون تردد أبو الأسود الدؤلي، المتوفي سنة 69هـ فوضع علم النحو إلا أن ما وضعه من قواعد لم يكن ليسدّ الحاجة المتعجلة لضبط القراءة، فعمد إلى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع، أو الإسم من الفعل فالعرب كانوا يعرفون الإعراب قبل النحو، كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالأعاجم وأسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللّغة، ليفهموا القرآن، فاضطروا إلى ضبطها وكانوا أكثر المسلمين انشغالا بذلك ولم ينضج إلا في العصر العباسي [15]. فكان محقا جرجي زيدان عندما أكد على أن القرآن خدم اللّغة العربية فظهرت علوم متعلقة به باحثة فيه، وهذا ما جاء في مقدمة الصحاح "فخروج العرب من جزيرتهم إلى العالم في صدر الإسلام وليس في أيديهم من الكتب غير القرآن الكريم يقرأونه ويتعظون به ويتحاكمون إليه وقد أعجبوا بأسلوبه ودهشوا لبلاغته لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع و لا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما وهو منشور مقفى على مخارج الاشعار

[14] - ينظر: أ .د مرتاض عبد الجليل، الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية، ص 73.

[15] - ينظر: جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية المجلد 1 منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1978 ص 319.

محاضرات في الموسوعات اللغوية

والأسجاع، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير مالم يكن له شبيه في لسانهم، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والأحكام وقصص الأنبياء، فأصبح همه تلاوتة وتفهم أحكامه لأنه قاعدة الدّين والدّنيا وهو أول كتاب أخذوا في قراءته وحفظه[16].

احتاج علم النحو في ترسيخ قواعده إلى معرفة كلام العرب وأساليبهم، وكانت حاجة العرب في تفسير القرآن الكريم إلى ضبط معانية وفهم أساليبه وعباراته، ليظهر علم آخر عرف "بعلم الأدب" وأحد أهم أسباب وضعه هو تفسير القرآن الكريم وفي هذا قال ابن عباس: " إذ قرأتم شيئا من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه في الأشعار لأن الشعر ديوان العرب[17].

ومما هو ملاحظ أن القصد من تأليف المعاجم وكتب العربية حراسة القرآن من أن يقتحمه خطأ في النطق أو الفهم، فحراسة العربية من أن يقتحمها دخيل، وصيانة هذه الثروة من الضياع سواء موت العلماء أو المواد أو اقترانها بالغريب مما يجعلها بعيدة عن قواعدها.

ولعله كذلك من أهم الأسباب التي جعلت علماء اللّغة والنحويين إلى الاهتمام بالنحو، إلا لأجل ابعاد الخطأ عن اللّسان وخاصة في تلاوة القرآن الكريم فأقاموا هؤلاء من أنفسهم حرّاسا على العربية يحفظونها ويبعدون عنّها الدّخيل.

في خضم هذه العوامل ظهرت الدراسات المعجمية اللغوية لتكون الخزانة الأمينة لذلك الثراء اللّغوي العربي بكل من قرآنه وحديثه وشعره سواء كلام منظوم أو منثور.

---

[16] - ينظر: الجوهري، الصحاح تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ص 42.

[17] - ينظر: المصدر نفسه، ص 49.

محاضرات في الموسوعات اللغوية

ومن هنا ظهر ذلك الدور الجلي للمعاجم في حفظ الثروة اللّغوية من الاندثار، فكانت وسيلة لغوية هدفها جمع اللغة والتقعيد لها لفظاً ومعنىً ومن أهم هذه الأسباب:

1- حراسة القرآن الكريم من الوقوع في الخطأ في النطق أو الفهم.
2- السبب الإجتماعي انتقال حياة البداوة إلى المدن ومن ذلك اختفاء السليقة العربية.
3- سبب ثقافي آخر: هو الحاجة إلى تدوين اللغة العربية بكل حروفها ومعانيها .
4- وأخيرا الخوف من انقراض اللغة العربية.

محاضرات في الموسوعات اللغوية